يوبيل الحرية الفضّي

رياض عصمت

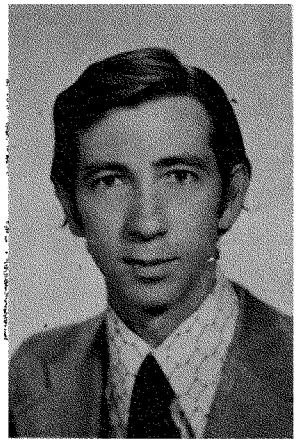

اذكر في اول عهدي بالنشر ، وكان ذلك عام ١٩٦٧ ، اني سمعت على لسان احد المثقفين ان الكاتب السوري لا يحظى باعتراف الوسط الثقافي ، ولا يكرس اديبا بين الادباء ما لم ينشر في « الآداب » . كان التحدي واضحا، لا بد من خوضه عاجلا أم آجلا ، ولم اكن ممن يحسنون التريث . كانت الهزيمة طازجة ، ودم الابداع ينبض حارا في عروقي، وقد تجمع لديّ ركام من المحاولات القصصية، والخواطر النقدية والفلسفية البدائية ، ومن القصائد الركيكة ، اضافة الى مسرحيتي الاولى التي كنت مبتهجا بها وهي « القنبلة » . المهم ان افضل النتاج آنذاك كان في ميدان القصة القصيرة ، ومن قصصي اخترت «حكايات خلف الاسلاك الشائكة » وارسلتها الى عنوان « الآداب » في ظرف انيق دون تعليق بعد ان ابرزت اسمي وكأنه سيصور تصويرا (م . زياض عصمت) .

اليوم ، بعد مضي عشر سنوات على هذه الحكاية ، اعترف ان نشر قصة « حكايات » هذه كانت الدافع الاساسي الذي شحذ همتي ، وجعلني بعد بضع دراسات نقدية ظهرت في العام نفسه على صفحات « الآداب » دون تأخير ، ادخل عالم الصحافة السورية « من فوق »،واحتل بسهولة ويسر مكان الناقد المسرحي الشاغر . لم يكن هذا فحسب هو الدرس الاول الذي قدمته « الآداب » ،والذي سينال عليه الدكتور سهيل ادريس كثيرا من الامتنان .. وربما بعض اللعنات ، ممن يحبون قصصي ومسرحياتي او ممن يكرهونها . الدرس الاهم كان ايماني في تلك الفترة المبكرة بان هناك تقاليد موضوعية نزيهة تحكم قضايا النشر في المجلات المرموقة ، وان صاحب الموهبة الحقيقية ليس عاجزا عن ان يشق طريقه بنفسه دون واسطة او اسم . لا انكر ان عديدا من قصصي التالية لم يتح لها ان تنشر في « الآداب »، وماتت دون جواب، لكن هذا ايضا ببساطة كان تتمة الدرس ، الدرس الذي مارسته بنفسي عندما اصبحت قيما على النشر بعد ذلك بسنوات في مجلة اسبوعية سورية . بالطبع ، كان هذا شيئا نادرا ، لكن « الآداب » حافظت عليه ، واصبح يشهد لها به .

ما الذي يجعل « الآداب » قيّمة على الحركة الثقافية في الوطن العربي ؟ ما الذي يجعل لها هذا الصدى الطيب بين القراء ؟ وما الذي يدفع بالكتاب ان يطمحوا اليها ، ويناضلوا للنشر فيها ، وهم لا يحظون باعتراف بلدهم الا بعد ان يرضعوا من حليبها ؟

اعتقد ان سببا رئيسيا هاما يكمن وراء ذلك : انه دفاعها عن الحرية . « الآداب » لم تكن يوما تابعة او مأجورة ، ولم تكن يوما عميلة لنظام او داعية لحزب . كانت دائما المجلة العربية التي تهتم بالمعاصرة وتقف مع الفكر التقدمي بخطه العريض . في اشد اوقات الازمات والحصار المضروب على الاديب العربي ، رفعت « الآداب » صوتها دفاعا عن حريته ، حتى ولو كلفها ذلك منع دخولها هذا البلد او ذاك . آن مواقفها تذكر اليوم ، ويجب ان تذكر ، اذ كلما وقّع ادباء بلد عربي بيانا ادبيا تقدميا له موقف يختلف عن موقف حكومة بلدهم وجدوا في «الآداب» وحدها صدرا يضم آمالهم بمحبة ، وتربة صالحة يغرسون فيها بذورهم الطيبة .

لهذا ، يجد الادباء العرب على صفحات « الآداب » منبرا حرا يتواصلون من خلاله . وبهذا الموقف ضمّت الآداب مئات الاصوات الادبية التي تمثل اليوم وجه الثقافة العربية التقدمية الاصيلة . لن تسعف الذاكرة وحدها المرء ليذكر مجموع الاسماء البارزة التي نشرت في « الآداب »، لكن الذاكرة على اية حال تأتينا باسماء : علي الجندي، نزار قباني ، غادة السمان ، فائز خضور ، حيدر حيدر ، ممدوح عدوان ، علي كنعان ، وليد اخلاصي ، زكريا تامر، سعيد حورانية ، وكاتب هذه السطور ،من سورية ممن نشروا في « الآداب » بكثرة خلال الاعوام الفائتة. كما تأتينا الذاكرة باسماء : يوسف ادريس، صلاح عبدالصبور،

احمد عبدالمعطي حجازي ، سليمان فياض ، صلاح عيسى ، فاروق عبدالقادر ، مجاهد عبدالمنعم مجاهد ، جمال الغيطاني ، امل دنقل ، وغيرهم من مصر ممن وقفوا على ارضها خلال الفترة نفسها . من بغداد والمغرب وتونس والسودان وصلت اصوات ادبية عديدة ، ومن فلسطين كانت « الآداب » اول من رفع لواء شعر المقاومة وتبنى اعمال محمود درويش ، فدوى طوقان ، سميح القاسم ، توفيق الزياد ، واحمد دحبور وغيرهم من ادباء الارض المحتلة .

لم يكن النشر في « الآداب » سهلا ، ولم يكن اختراق الاسماء اللامعة لعبة ، اذن لم يكن ممكنا ان تفتح ابوابها الا للموهبة الحقيقية ، حتى ولو ظل طلاب الشهرة يقرعون تلك الابواب سنوات طويلة . هذه الصفة حافظت عليها « الآداب » دون مغالاة او تحجر ، وكما نشرت لي ولغيري اول اعمالهم دون واسطة او اسم ، قدمت باستمرار افضل الاقلام الادبية الشابة والواعدة . قامت بهذه المهمة في وقت اخذت فيه الاحزاب السياسية العربية تلمّع اسماء بعينها ، وترسم حولها هالات الدعاية والضجيج . ان عدم التبعية في عصر « استزلم » فيه حتى الكبار ، وساد فيه الخصيان ، ان عدم التبعية في عصر تباهي فيه الفقاعات بانتفاخها ، ويتفاخر فيه الصبيان بأن ورم اجسادهم عضلات ومظاهر صحة ، وتتمايل المومياءات كالطواويس نافضة عنها غبار توابيتها ، هو فعلا موقف مشرف ونبيل . لم يكن لانصاف الموهوبين ان يقفوا على ارض « الآداب » ، وكانوا يدركون ان ظلهم الكبير الذي يباهون به ينتهي عند عتبتها . لذلك حافظت المجلة على قداستها ، ليس بمفهوم الاحتفاء بكل ما هو تقليدي وشائع ، بل بمفهوم الاحتفاء بكل ما هو طليعي مجدد . فقد تبنت « الآداب » حركة الشعر الحديث تماما ، دون مغالاة او اسفاف او نقل حرفي لما هو شائع في الغرب ، بل بأصالة عصرية ، ومن خلال موقف تقويمي واع . كما تبنت حركة التجديد في القصة القصيرة العربية ، وقامت دائما بتقليد النقد الذاتي في كل عدد لقصائد وقصص العدد السابق ، بحيث يواكب النقد الادبي الابداع انخلاق بشتى اشكاله ومدارسه . واذكر الآن اسماء سامي خشبة ، صبري حافظ في هذا المجال ، في وقت اذكر فيه اسماء كتّاب قصة مثل يوسف القعيد ، محمد زفزاف ، رشاد ابو شاور ، ومحمد خضير ، ممن لفتوا الانظار فعلا من خلال « الآداب » على مستوى عربي . ان اسماء النقاد والمفكرين والادباء الذين نشروا في « الآداب » لا تحصى ، وبينهم بعض من خيرة من يمثل ثقافتنا المعاصرة ، امثال : جبرا ابراهيم جبرا ، حليم بركات ، خليل حاوي ، عبدالله عبد الدايم ، احسان عباس ، النويهي . وفي حين لم يتمكن نجيب محفوظ من نشر روايته الملحمية في مصر قامت « الآداب » بنشرها . انها تصبح فجأة عاصمة المنبوذين ، والام التي تفتح احضانها لاستقبالهم بمحبة .

في الوقت نفسه فتحت « الآداب » نوافذها على الثقافة العالمية باستمرار ، وقدمت احدث التيارات الفكرية فيها ، على صفحات المجلة ومن خلال منشوراتها المتتالية على مدى ربع قرن . لقد التزمت كما يبدو بقول طاغور : « فلنفتح نوافذنا على رياح العالم ، ولكن لتكن جذورنا ثابتة في الارض » . انها بذلك قد حققت المبادىء الثلاثة المطلوبة في دنيا الثقافة : الحرية ، الاصالة ، والمعاصرة . كما حققت التقاليد الثلاثة المطلوبة في دنيا النشر : الموضوعية ، حسن التذوق ، والتجديد .

لقد كانت « الآداب » الخبز اليومي للجائعين الى المعرفة ، تنتشر في كل المدن والقرى ، وتلبي حاجة التواصل العربي ، وترفع راية الحرية . دعونا اذن نحتفل بعيد ميلادها الـ (٢٥) ، دعونا نحتفل بيوبيل الحرية الفضي .

دمشق

صدر حديثا

الانسان وقواه الخفية

تاليف كولن ولسن

ترجمة سامي خشبة

دراسة في القوة الكامنة التي يملكها البشر للوصول الى ما وراء الحاضر

دار الآداب